الرومانتيكية فى الأدب الصوفى

للأستاذ أحمد السيد عوض الله

المدرس بالأزهر

(٤)

ألقينا نظرة على طبيعة الحب الإلهى عند الصوفيين فى العدد السابق وبينا أن هذا الحب ميل من جانب المحب ورضا من جانب المحبوب .

وأن طبيعة الحب الإلهى تختلف اختلافا بيناً عن طبيعة الحب الإنسانى لأن المحب إنسان والمحبوب ليس كمثله شىء .

وفى هذا المقال نتكلم عن تأثير هذا الحب الإلهى فى الأدب .

ومن البديهى أن الصوفى عندما تشرق روحه بالحب وتنساب بين حناياه أضواء العشق الإلهى ويتجلى له الله فى ملكوته . يسبح بنفسه فى هذا النور المتلألىء وإذا بجسده وكأنه لا شىء ، فالطبيعة المادية تختفى حيث تتسلط المعانى الروحية وتوحى إليه هذه الشفافية بمعان عميقة وأفكار نورانية وتتدافع مسرعة تريد الإفصاح عنها .

وهنا نرى تلك الإشعاعات تنطلق فى إطار من الألفاظ مكسوة بجمال تلك المعانى فتلمح بين ثناياها كنه هذا الحب ونتبين مدى عمقه فى قلوب القوم وكلما كان الحب ملتهباً كانت الألفاظ معبرة عنه نارية وقوية ، وقد يجنح المحب فى بعض الأوقات إلى الهدوء فى حبه حيث يعيش فى ضياء العشق مستمتعاً بما يوحيه هذا العشق من أفكار رائقة وأخيلة جميلة فتراه يعبر عن هذا الوجد الهادىء بأسلوب سهل كالماء السلسبيل ، ولنجلس سوياً فى هذا الهيكل لنسمع ذلك الترتيل الشجى وتسبح أرواحنا مع النغمات الملائكية فى أثوابها القشيبة من الشعر والنثر ولنتعرف من خلال هذه الألفاظ على مدى رسوخ باع الصوفيين فى وضع الحب وفلسفته والتمكن من شرح الدقائق النفسية ،

كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد

البسطامى يقول : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله : فرد عليه أبو يزيد قائلا : غيرك شرب بحور السموات والأرض ولم يرو بعد ولسانه خارج ويقول هل من مزيد ؟ وأنشد :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى
وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً
فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس
فما نقد الشراب ولا رويت

فالمحب الصوفى على ضوء هذا النص دائم الذكر لربه . وهو فى حبه هذا فى تيار دائم تارة يشتد حيث يصل به إلى درجة تشبه الموت من قوة الشوق ووهج العاطفة وآناً يهدأ حتى تتمثل له الحياة هنيئة راضية تداعبه الأمانى الحلوة والأحلام السعيدة فى لقاء المحبوب وهو يشرب هذه الكئوس من الحب متوالية متدافعة فلا يحس برى بل يرى نفسه قابلا لكل فيوضات الحب مهما كثرت أقداحها وأترعت كئوسها . .

على أنه يتبين لنا أيضاً من خلال هذا النص أن القوم يتفاوتون فى تقبل تلك الفيوضات فبينما يحيى بن معاذ يسكر بالحب الإلهى لكثرة ما شرب من كئوسه إذا بيزيد يعرّض فى خطابه بأنه يترع من هذه الكئوس ما شاء الله أن يترع ثم هو يجد نفسه فى حالة من العطش يخرج بسببها لسانه طالبا المزيد من هذا الشراب .

وهنا نجد الفرق حاسما بين حب الرومانسيين وحب الصوفيين ؛ لأنه وإن صح أن الرومانسيين يحبون فى شوق ولهفة إلا أنهم يكتفون من المحبوب ولو بالقليل كما سبق أن قلناه فى نص دى فينى حينما خاطب حبيبته قائلا : « لاتدعينى أيتها الحبيبة وحدى إن لمسة رقيقة من أصابعك الحلوة . كفيلة أن تخلق الأمن فى نفسى والنور فى قلبى ، وهو فرق يتمشى مع طبيعة الحبين ؛ لأن الحب الإنسانى يختلف عن الحب الإلهى فى كنهه وطبيعته كما أسلفنا .

وقد يصل الحب الصوفى إلى درجة لا تنال إلا لمن صلى فى محرابه سنين فيحرق الأنين جسمه حتى يصل إلى الضمور ،

حدث الجنيد قال : بعث إلىّ السرّى الكبير بين طبيعة الحب الصوفى والحب الرومانسى ، وإذا صح فى كتب الأدب

أن قيساً حينما مسه عطر ليلى وهفهف عليه هواها . هام فى الفلوات حيث نسى نفسه ، فهزل جسمه ، وضعفت قواه . واسترسل شعره حتى أصبح قريب الشبه من الحيوانات التى تسكن الجبال ، بل إن الكتب تحدثنا أنه تصاحب مع هذه الحيوانات ، وجعل يطعمها ويدللها .

أفتنكر على المحبين الإلهيين أن يتيهوا فى بحار ذلك الحب الخالد ؛ وإذا كانت لمسة إنسانية تجعل قيساً وغيره تائهين فى روضة الحب ، أفلا تكون اللمسة الإلهية جديرة بأن تصيب العبد بالجذب ؟ نعم ونعم ، ومن حقنا أن نقف ساخرين من أولئك الذين يقفون موقف النكران من أحاديث الحب الصوفى وأثره فى النفوس لنقول لهم كما قال الشاعر :

وما ضر الورود وما عليها
إذا المزكوم لم يطعم شذاها

ولنمش مع المحبين الصوفيين لنسمع ذلك الأدب الذى يفوح بالذوق السليم . إنهم يتأدبون مع الله عز وجل فى حبهم له ويرون من التقدير لهذا الحب أن يكون الله دائماً على لسانهم لا يذكرون غيره .

روى أبو بكر الكتانى قال : جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم فقالوا له هات ما عندك يا عراقى . فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال :

« عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه . قائم بأداء حقوقه . ناظر إليه بقلبه . أحرقت قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده . وانكشف له الجبار من أستار غيبه . فإن تكلم فبالله . وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله . وإن سكت فمع الله . فهو بالله ، ولله ومع الله .

بل إن بعض المحبين الصوفيين يرون من العيب أن يأتى ذكر غير الله فى سياق ذكر الله .

فعندما تحدث أبو سعيد الخراز عن هيامه فى حب الله وفنائه فى هذا الحب ، وأنه قد تاه فى حال غيبته حتى عن الإنس والجن ، وأنه كان يقول

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا
سوى ما يقول الناس فىّ وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وإنسها
فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفاً يهتف بى ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده
ويفرح بالتيه الدنى وبالأنس

رقعة وقال : هذه لك خير من سبعمائة قصة فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى
سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

أى حب ذلك الذى يبعث النشوة فى الروح فتسمو وتتألق تاركة ذلك الحطام البالى يتقلص شيئا فشيئا حتى يلتصق القلب بالأحشاء وتذبل الأعضاء حتى لا يبقى منها سوى عين باكية ولسان دائم المناجاة ؟ إنه لاشك حب عميق وصادق يصدقه من ارتفع بروحه إلى السماء وينكره من أخلد بطبيعته إلى الأرض .

ولقد كان الجنيد يعجب بهذا النص لما فيه من لوعة وأنين يجدهما المحب فى نفسه ، فقد وجد من الصوفيين فعلا من تأثر جسمه بسبب حبه . . .

روى القشيرى أن الجنيد قال « سألنى السرّى يوما عن المحبة فقلت : قال قوم هى الموافقة ، وقال قوم هى الإيثار وقال قوم كذا وكذا ، فأخذ السرى جلدة ذراعه فمدها فلم تمتد ثم قال : وعزته تعالى لو قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ثم غشى عليه فدار وجهه كأنه قمر مشرق » .

ويبدو أن الحب الإنسانى مهما بلغت حدته وزاد لهيبه فإنه لا يزال مقيداً بالقيود الجسدية ، ولذلك يكاد يجمع علماء الأدب على أن ليلى حبيبة قيس ، وعزة صاحبة كثير ، وبثينة صاحبة جميل كانت كل منهن على قدر من الجمال ، ولم يكن على قدر من الدماجة يسمح لعشاقهن بالهيام فى جمال أرواحهن فقط .

أما الحب الإلهى فإنه حب روحى خالص تبدو فيه الروح منطلقة نحو خالقها راكعة فى محراب جماله متأججة بنار حبه الأبدى صريعة لهذا الهوى القاتل . .

مما يجعلنا نؤمن بأن قوة العشق الإلهى تبرر ما يذهب إليه المحبون الصوفيون من الضنا والعذاب والبكاء والأنين والنحول والهزال التى تصيب هؤلاء المحبون . . .

وهذه القسوة فى الحب الإلهى ، والتى تفوق بمراحل قسوة الحب الإنسانى تطلعنا بوضوح على الفرق فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى وكنت بلا حال مع الله واقفاً تصان عن التذكار للجن والإنس

البحث مستمر .